المكتبة الخضراء للأطفال

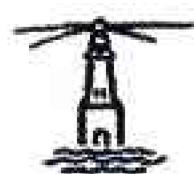
٦٣

الماسة الزرقاء



تأليف
لينا كيلانى

رسوم
ماهر عبد القادر



دار المعارف

« بيت من الماضى »

بيــتُ عَريق قَدِيم.. فِى مدينَةٍ عَريقةٍ قديمَةٍ.. لعلَّهَا مِنْ أقدم المدنِ المعْمُورةِ عَلَى الأرضِ.. المُهم أَنَّ الأحداثَ وَقعت.. وَهِىَ حَقيقَيةٌ إِلى حَدِّ الخيَالِ.. مَنْ بنَى هذَا البيْت؟.. لاَ أحدَ يعرفُ عَلى وجْهِ التَّحدِيد.. فَالأبُ كانَ يقــولُ إنه جَدُّه.. وَالجدُّ يقــولُ إنهُ جدُّه.. وَهكذَا.. وَتصلُ الحكايــةُ إلــى أَنَّ أصلَ البيتِ قصرٌ قديمٌ لمْ يبقَ منهُ سِـوَى هذَا الدورِ الأَرْضى الذِى يُجددهُ سُـكانهُ بينَ حينٍ وآخر كلمَا تعاقبتِ الأجيَال..



وكذلــكَ الحَديقةُ التِى أصابهَا الإهمالُ عَلى مَدَى السـنينَ، فأَصْبحت خَاويةً عَلى عُروشهَا إلاَّ مِنْ بعضِ الأَشجارِ التِى يُقال إنَّ عُمْرَ إحداهَا مِئَات السـنينَ.. وَفِى الحديقةِ صَخرةٌ محفورةٌ كأنهَا نُصْبٌ تِذْكَارى، يدخلهَا النورُ منْ أعلى عَنْ طريقِ فتحَة فيهَا؛ فتبدُو أحجارُها العتيقةُ بألوانٍ شتَّى منَ الأسودِ وَالبنفْسجى حَتَّى الأزرَقَ وَالأَبيضَ الفِضِّى.

البيتُ هجرهُ سَـاكنوهُ.. بعضُهم ماتَ وَدُفنَ فِى المقبرةِ القريبةِ منَ البيتِ.. وَالبعضُ الآخرُ سـافرَ أوْ هاجرَ إلى بلادٍ شَـتَّى، وَهو يحملُ معــهُ صورةَ البيتِ الذِى وُلد فيهِ، أَوْ عاشَ فترةً منْ حياتهِ فِى كَنَفه.. أَوْ ربمَا سمعَ عنهُ مِنْ أَبيهِ أَوْ جَدِّه.

لَـمْ يبـقَ فِى البيتِ مِنْ شَـجَرة العائلَـةِ، إلاَّ تلكَ الأرمَلةُ الشَّـابةُ «بهية»، وَابنتهَا نُور، وهى فِى شبهِ انقطَاع عَنْ العائِلةِ، إذْ لَمْ يبقَ مِنْ تلكَ الشـجرةِ سوَى أشـخاصٍ مَعدودينَ، مُتناثرينَ فِى أنحاءِ البلادِ لا يزورُ بعضُهم بعضًا إلاَّ نادرًا.. لكنَّهُم إذْ يجتمعُ أحدُهم بالآخرِ، إنمَا يكونُ الاجتمَاعُ فِى البيتِ الكبيرِ العتيقِ.. وهنَا تكونُ الذكريَاتُ أكثرَ مَا تكونُ حيويَّةً.. وَكلُّ واحدٍ مِنْهم يروِى مَا سـمعهُ أَوْ مَا اختزنهُ فِى ذَاكِرَته.. ثُم يفترقُونَ وقَدْ شُـحِنوا بعواطفَ جَدِيدةٍ وَمشَاعر لَمْ يكونُوا يعرفونَهَا.. حتَّى قالَ أحدُ أعمَام «بهية» مرةً:

– كأنَّ فِـى هـذَا البيتِ سـحرًا مَا.. مَا إنْ نخرجُ منهُ حتَّى نشـعُرَ وكأننَا عُدنا شـبانًا أَوْ أطفالاً.. ونحسُّ أننَا سنراهُ بطريقةٍ مَا.. أَوْ أننَا نريدُ أَنْ نعودَ إليهِ ولَوْ بقَى منهُ حجرٌ وَاحِد.

قــالَ هذَا وهوَ قَدْ تجاوزَ الســتينَ منْ عُمرهِ فِــى آخرِ مرةٍ زارَ فيهَا البيتَ، وردَّتْ عليهِ «بهية»:

- لماذَا لاَ تأتِي وتســكنُ معنَا؟.. نحنُ وَحْدنَــا.. أنَا وَنُور.. وأنتَ أيضًا وحدكَ بعدَ أَنْ تزوجَ أولادكَ وَتركُوكَ.



فأطرقَ قليلاً، ثُم قالَ:

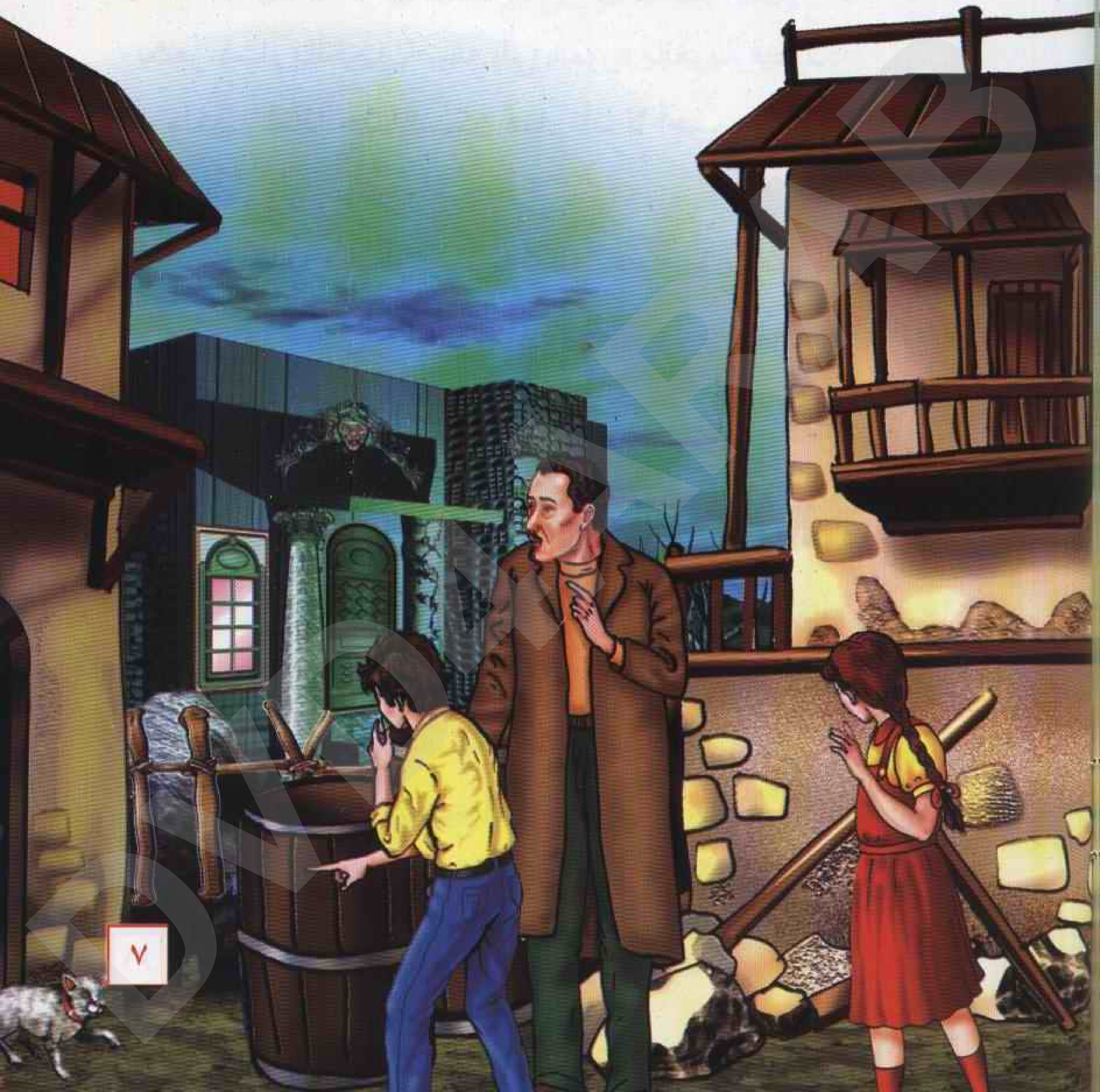
- سَـأفكر فِى الأمْـرِ.. ولكنْ مَا أَظننِى سَـأَفعلُ.. فأَنَا حيثُ أَعيشُ فِى تلكَ المدِينة السَّـاحلية مُرتبطٌ بعملِى ولَوْ أنهُ بَسِـيطٌ.. وبمعَاشِى التقاعدِى.. وَبأَصْدقائِى فِى مَقْهى «النُّورس».. وَبأشـياءَ أُخرى كِثيرة يصعبُ علىَّ مُفارقتهَا.

وَتجيءُ أَيامٌ صَعبةٌ.. شَدِيدةُ الصُّعوبةِ مِنْ ضَائقَةٍ اقتصَاديةٍ عَامة فِى البلادِ، فينقطِع الجميعُ عَنْ زِيارةِ البيتِ.. وتبدأُ «بهية» تشعرُ بوحْشةٍ قَاتلةٍ، لاسيمَا وَأنهَا تَركت الحديقة مُهْملة للغَايةِ، وَانشغلتْ بتدبيرِ شُؤونِ حياتهَا، بعدَ أنْ قلَّت مواردُهَا، كَمَا انْشَغلت نورُ بدرَاستهَا.

❑❑❑

« عيون الظلام »

المسَـاءُ – فِى حارةٍ قديمةٍ – منْ مدينةٍ مُوحش وَكئيب.. والسكانُ قدْ آووا إلى بُيُوتهم مُبكرينَ كمَا هىَ عَادتهم.. وأغلقُوا أبوابهُم المهترئَة الضيقَة.. ولمْ يعدْ فِى الحارةِ سـوَى أشبَاح الظلامِ وَبعض القططِ التى تنهشُ أكوامَ القمامةِ ؛ لتعثرَ علَى مَا تأكلُهُ.. وَهىَ غيرُ تلكَ القططِ التِى



يُربيهَا السكانُ فِى البيوتِ لملاحقَة الحشرَات وَالفئرانِ. وهذَا لا يمنعُ تَواصَل المواءُ بينَ الطرفينِ .

يعودُ السيدُ «بهاء» إلى بيتهِ الذِى سَكنهُ مجددًا وهوَ يسحبُ يدَ ابنهِ هشَام. تمرُّ قطةٌ مُسرعة أمامَ الولدِ فيصْره خائفًا ثمَّ يلتصقُ بوالدهِ فيقولُ الأبُ:

- ماذَا جَرى يَا هشَام ؟.. ليسَت أكثر منْ قطةٍ شَاردة !

يشعرُ هشَام بالخجلِ إضَافة إلى شُعوره بالغربةِ فيقولُ:

- ولكنْ.. لماذَا جئنَا لنسكنَ هنَا.. أنَا لا أحبُّ هذَا البيْت .

يردُّ الأبُ وقد خفضَ رأْسهُ:

- إنهُ بيتنَا يَا هشَـام.. ولسنَا نملكُ سـواهُ الآنَ. أنتَ تعرفُ كيفَ بعنَا بيتنَا فِى شَـارع «الزهور» لنسددَ الديونَ ، ولمْ يبقَ لنَا إلاَّ العودةَ إلى هذَا البيتِ. سـنتحدثُ عنْ ذلكَ منْ جديدٍ.. هيَّا أسرعْ خطوَاتكَ.. واعْطنى هذهِ الأكيَاس التِى تحملهَا .

وسـارَ هشَـام إلى جَانب أبيهِ الذِى ، أطرقَ برأسـهِ ، وهوَ يتعجلُ السيرَ وفكرُ فِى البيتِ الملاَصق لَهمُم:

- يَـا لحـظِّ هذَ البيت الكَبِير.. هلْ هوَ نفيـسٌ إلى هذَا الحدِّ حتَّى تسكنهُ تلكَ الأرملةُ «بهيّة» معَ ابنتهَا بمفردهمَا ؟

وبينَا الأبُ يفكرُ فِى تاريخ المنزلِ.. بلْ فِى تاريخِ المدينةِ كلِّها ، ظهـرتْ أمامهُ نور فجأةً. وبعْد أنْ تبـادلاَ التحيَّة قررَ أنْ يوصلهَا معَ

ابنـــهِ إلى بابَ بيتهَا. وفِى الطرِيق كانَ يسـألهَا عنْ أحوالهَا وأحوَال أمهَا.. وفجأةً ذُعرت نورُ وَصرختْ. قالَ أبو هشَام:

– لمـاذَا تصْرخينَ أنتِ الأخرَى يَا نــور ؟ مَا الذِى جَرَى . هلْ هوَ جرذٌ صغيرٌ خرجَ منْ جُحره ؟

ردَّدت نورُ بانفعالِ ومنْ بينِ الدُموع:

– لاَ.. لاَ.. رأيتُ عينًا تنظرُ إلىَّ مِنْ الحديقةِ .

– عَيْن ؟! – قالَ أُبو هشَام – لعلهَا يَرقة أَوْ عينُ قطةٍ .

شَهِقت نور ، وقالتْ:

– ليسَت هذهِ أولُ مرةٍ.. رأيتُ هذِه العيْن عدةَ مراتٍ.. وخاصَّة فى المسَاء .

قَال أبو هشَام منزعجًا:

– ولكـنْ مَا علاقتكِ بالحديقةِ.. إنهَا مهْجورة.. وأنتِ تمرينَ منهَا فقــطْ للوصولِ إلى بابِ بيتكِ ؟!.. هيَّـا أغمضِى عينيكِ ونَاولينِى يدكِ وَأَسْرعى .

لحظاتٍ وانفجرَ الرعدُ ، ولمَ البرُ ، وبدأَ المطرُ يهطلُ بغزارَةٍ .

قالَ أبو هشام وقدْ شعرَ بانفرَاجٍ مَا:

– أرَأيتِ ؟.. إنهُ البرقُ .

قالتْ نور بصوتٍ هامسٍ وكأنهَا تحدثُ نفسهَا:

– لاَ.. ليسَ البرقُ.. ليسَ البرقُ. عَيْن زرقَاء واسعِة تنظرُ إلىَّ .

تلكَ الليلةُ لمْ تستطعْ نور أنْ تنساهَا خاصّة وأنهَا كانتْ تَرى العينَ بوضُوح تَامٍّ للمرةِ الأُولى ، بينمَا هشام وأبوهُ لمْ يلحظَا شيئًا وإنمَا ظنَّ أبو هشَا أنهَا تتوهَّمُ أشياءَ لا وجودَ لهَا .

وعندمَا آوت إلى فراشهَا كانتْ تحسُّ بأنَّ تلكَ العيْن الزرْقاء مَا تزالُ تنظرُ إليهَا وكأنهَا تحدقُ بهَا. أغمضَتْ نور عينيهَا بشدٍ ، ودسَّت رأسهَا تحتَ غطاءِ السريرِ وكأنهَا تهربُ مِنَ العينِ وهىَ تخْفى خوفهَا تحتَ الغطاءِ فِى الوقتِ نفسِهِ .

لَمْ تستطعْ نور أنْ تنامَ بسهولَةٍ كعادتهَا ، بلْ شَعرت فجأةُ وكأنَّ العينَ الزرْقاء التِى لمحتهَا تُريد أن تخبرهَا بشىءٍ مَا ، ولكنْ خوفًا مجهولاً كانَ يجمدُ أوصالهَا ويدفعهَا لأنْ تطردَ تلكَ الأفكارِ منْ رأسهَا وتحاولُ النومَ منْ جديدٍ .

عندمَا أشرقَ الصباحُ صَحَت نور مُتثاقلة ومَا إنْ نهضَتْ منْ سريرهَا ، حتَّى هاجمتهَا أفكارُ الليلةِ السابقةِ بقوةٍ ، فهرعَت مُسرعة نحوَ النافذةِ المطلةِ عَلى الحديقَةِ ؛ لتفتحَهَا وتبحَثَ بنظرةٍ مُتفحصَة عنِ المكانِ الذِى رأتْ فيهِ تلكَ العيْن .

وَيَا للمفاجَأة.. يَا لَروْعة مَا رَأت..

مَا هذَا ؟.. حجرٌ صَقيل مَائل للبياضِ يبرزُ منْ بينِ أحجَار الحديقةِ المهمَلةِ وَكأنهُ ملكُ تلكَ الحجارةِ.. كيفَ لمْ تلحظْهُ مِنْ قَبْل؟!.. إنهُ حجرٌ غايةٌ فِى الروْعَةِ وَالجمَال. ولكنْ مَا هذَا الذِى يشعُّ فِى وَسَطه ؟

أَغمضَتْ نُور عينيهَا، ثمَّ نظَرتْ مِنْ جديدٍ؛ لتتأكدَ أنهَا اسْـتيقظتْ فعلاً مِنْ نومهَا، وأنَّ مَا تراهُ هُوَ حِقيقة وَليسَ خيالاً.. أجلْ إنهَا تَرَى ماسةً زرقَاءَ تتوسَّطُ الحَجَر.. مَاسةٌ بديعَةٌ تبرقُ كَجوْهرةٍ فريدةٍ.. إنهَا إذَنْ مَاسة زَرْقاء جَمِيلة.. لاَ عينٌ زرقاء شرِّيرة.

ارْتَجَفـت.. وَفكَّـرت هلْ تركُـضُ نحوَ أُمهَا وَتخبرهَـا بمَا رأتْ، أو تدعوهَـا لتَرى معهَا؟ لاَ.. لتنتظرَ إلَى الغـدِ حتَّى تتأكدَ مِنْ صِحَّةِ مَا رَأتْ.. لكـنَّ المفاجـأَةَ كانتْ أنهَا عـادتْ إلَـى غُرْفتها معَ غروبِ الشَّمسِ، ولمَّـا اقْتربَتْ مِـنَ النافذةِ لمحَتْ شَـعاعًا بدأَ يسـقطُ فوقَ الحجَرِ.. يتجمَّعُ وَيلمعُ ويتحولُ إلَى مَاسةٍ زَرْقاء .

□□□



« حقيقة أم خيال »

وَهكَذا انعقدَت الصلةُ الخفيَّةُ بينَ نُور وَمَاسـتهَا البرَّاقة.. فكانتْ كلمَا عَادت إلى غُرفتهَا معَ غروبِ الشَّمسِ وقبلَ مَجِئ اللَّيل، تقومُ بينَ وقـتٍ وآخرَ لتفتحَ النافذةَ، وتنظرَ إِلَى الحديقةِ حيثُ الحجرُ الأبيضُ وَفِي وَسَطه الماسَة الزرقَاء.

غالبًا مَـا كَانت تَرى المَاسـةَ مُضِيئة مثلَ نجمَـةٍ.. وَأحيانًا كَانت لاَ تَرَى شـيئًا وخَاصَّة إِذَا كَانتِ السـمَاء تَمْتلىءُ بِالغُيوم أَو إِذَا تَأَخرَ اللَّيل.



وَعَلـى أَيَّةِ حالةٍ فقدْ كانتْ تنامُ والحلْـمُ الجميلُ يداعبهَا، وهوَ أنْ تحصلَ عَلى المَاسـةِ فتضمهَا إلى سِلسـلةٍ ثَمِينة.. أوْ تجعلهَا تتوسَّطُ حبَّـاتِ عقـدٍ تُزينُ بـهِ عُنقهَا، ثـمَّ تذهبُ إلَى قَريباتهَـا أوْ رَفيقاتهَا ويرَاهَا الجَمِيعُ.

وَتتخيلُ كيفَ أنَّ كلَّ واحدةٍ منهنَّ سـوفَ تَشْـهقُ وتسألهَا: «مِنْ أيـنَ حَصلتِ عَلى هـذَا العقدِ يَا نُور؟».. وَقَدْ يسـألنهَا أَسـئلةً أُخْرى.. وَعليهَا أنْ تُهيئَ الأجوبَةَ. أولُ جوابٍ هُوَ أنَّ هذهِ الماسَةَ كانـتْ ملـكًا لجدتهَا الثَّريـة الجَمِيلة، وَقد احتفظَـتْ بهَا الأمُّ لكـيْ تمنحَهَا لنُور عندمَا تبلغُ العَاشـرةَ، وتكونُ قَدْ نجحَتْ فِى مَدْرستهَا بامْتيَاز.

صَحيحٌ أَنهَا تَجَاوزت العاشرةَ.. وصحِيح أنَّ العامَ الدرَاسىَّ لَمْ ينتهِ بَعْد.. لكنهَا فِى السـنوَاتِ المَاضيةِ كَانت الأُولى فِى صفهَا. ومَا الفرقُ بينَ أنْ تكونَ فِى العَاشرةِ تمامًا أَوْ تَجَاوزتهَا بقليلٍ.

وَتَساءلت.. هَلْ تتذكَّرُ قريباتِهَا وَرَفيقاتِهَا يومَ ميلادهَا فِى الصيفِ المَاضِى؟

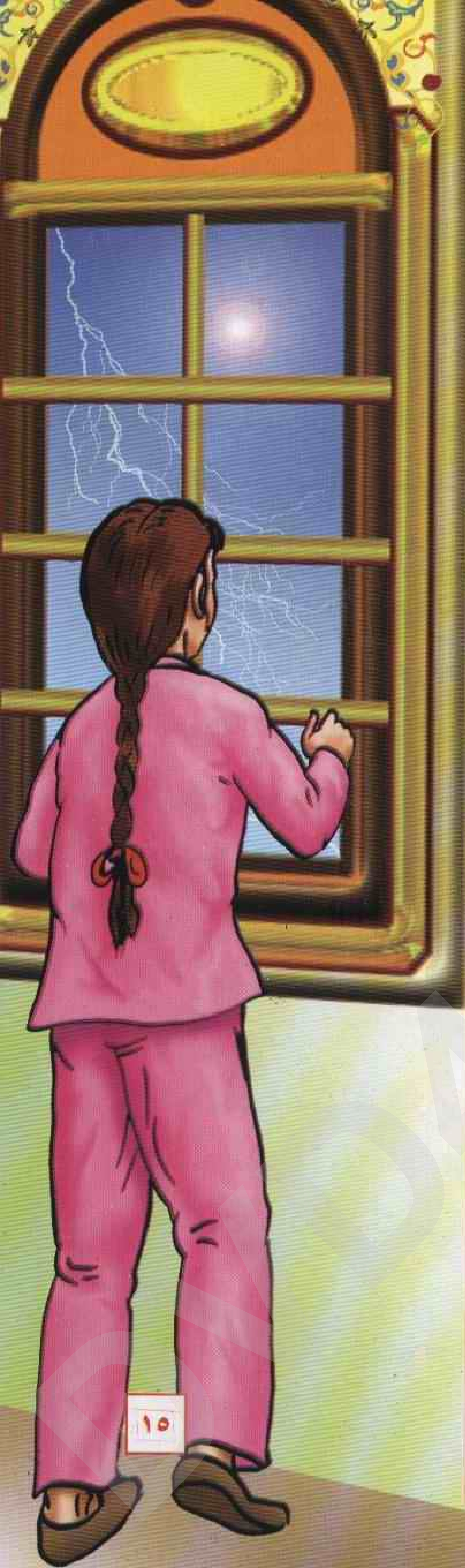
إنَّ يومَ الاحتفالِ بعيدِ ميلادهَا، وكانَ فِى يوم صَيْفى شَدِيد الحرَارة، لَمْ تَحْضـر وَاحـدةٌ مِنَ الصديقاتِ أَو القَريبَات، فقـدِ اقتصرَ الاحتفالُ عليهَـا وأمهَـا وخالتهَا فقـطْ؛ لأنَّ أمهَا كانتْ فِى ضائقَةٍ مَعيشـيَّة، وَاعتذرتْ لَهَا؛ لأنهَا لم تكنْ تملكُ مالاً كافيًا لذلكَ، وخاصَّة أنَّ أخاهَا

- أو الخال - الذِى يَأتِى لهمْ كلَّ شهرٍ بمعاشِ والدهَا التَّقَاعُدى قَدْ تأخَّر هذَا الشَّهر لأنهُ مِريض.

تعرفُ نُور تمامًا أَنَّ أحوالَ أُمهَا صَعْبة، وأَنَّ الأُم تبذلُ جهودًا كبيرةً لتظهرَ نُور - دائمًا - بمظهرهَا المميِّزِ وسَط مَنْ هُنَّ فِى عمرهَا، وَأَنْ ترتَدِى أجملَ الثيابِ، وَأَنْ تكونَ مثلَ رفيقاتهَا فِى المدرسَة الخاصَّة. وَالتلميذاتُ كلهنَّ مِنَ الطبقةِ الغنيةِ. وكثيرًا مَا كَانت تُدعى إلى بيتِ إحداهنَّ فِى مُناسبةِ عيدِ ميلادهَا، أَوْ أَىِّ مناسَبةٍ أُخْرى. فتدهشُ للثَّراءِ والفخَامةِ فِى ذلكَ البيتِ.. وتظلُّ تنظرُ إلى الثريَّاتِ، وَإلَى الأَضْوَاءِ اللاَّمعةِ باللَّونِ الأزرقِ فتتذكَّر فورًا الماسَةَ الثمينةَ المُلتصقةَ بذلكَ الحجَرِ فِى الحَدِيقَة.

وَتسألُ نُور نفسَهَا هذَا السؤَال وَهُو: إنهَا هىَ وأمهَا لَوْ باعتَا تلكَ الماسَةَ أَلنْ تكونَا قَادرتيْنِ عَلى شرَاءِ بيتٍ مثلَ هَذِه البيوتِ التِى تزينهَا الثُّرياتُ والتحفُ والمفروشَاتُ الثمينةُ اللاَّمعة؟ وَقد تَشْترِى لهَا أُمها أيضًا «بيانو» أسودَ اللونِ يستريحُ فِى إحدَى الزَّوَايا، وتضعُ فوقَ سَطْحه اللاَّمع صُورةً لهَا وَهِىَ طفلةٌ بينَ أُمهَا وَأبيهَا. وَقد تضعُ تمثالاً لذلكَ المُوسِيقِىِّ العظيمِ الذِى حدثتهنَّ عنهُ معلمةُ المُوسيقَى هِىَ وَرفيقاتُهَا.

وتهجمُ الدموعُ إلى عَيْنى نُور قبلَ أَنْ تنامَ عندمَا تشعرُ أَنَّ كلَّ مَا تفكرُ فِيه إنمَا هُو منْ قبيلِ الأَحلامِ التِى قَدْ لاَ تتحَقَّق.. لكنهَا



تطمئنُ نفسهَا أَنَّ الماسةَ حَقِيقية.. وَأنهَا ثَمِينة.. ولابدَّ منْ أَنْ تحققَ لهَا أَىَّ حلْم مـنْ هذه الأَحْـلام فتغفُو بهُـدُوء.. وَلاَ تشـعرُ إلاَّ وَالصَّباح قدْ أشـرقَ فتنهَض مَلْهوفَـة لتنظرَ إلى المـاسَـة، وقَدْ تراهَا إذَا كَانتِ الشـمسُ فِـى أولِ بزُوغِهَا.. وتختفِى إذَا ملأَتِ الشمسُ الكَوْن. وعلى أيَّـةِ حَالةٍ فهىَ تقومُ نَشِـيطة، وتمضِى نهارَهَـا بشـكلٍ اعْتيـادى حتَّى يَحينُ موعـدُ الغـروبِ فَتهْبِـط إِلَى الحديقةِ، وَتبـدأ بمناجَاة المـاسَـة سَـوَاء رَأتهَا أَوْ كانتْ لاَ تراهَا.

□□□

« وردة الأمـل »

الصباحُ رَبيعىٌّ مُشْـرق.. والشمسُ تنشرُ أشِعَّتِهَا الذَّهبيَّة.. والهواءُ بـاردٌ لكنـهُ رَقِيق. أفاقت نُـور مُبكرة جدًّا وَأَطلَّـت - مَلْهوفةً - منَ النافذةِ، فرأتِ الماسَة الزرْقَاءَ تلمعُ بألوانِ قَوْس قُزَح.. صَاحت مُحَدثَةً نفسهَا: لابدَّ أنْ تراهَا أمِّى.. لابدَّ.. حَتَّى تُصدقنِى.

ارْتدتْ ثيابَهَا، ومَشَّطَتْ شعرَهَا، وتعطَّرتْ ثُمَّ هبطتْ إلى الحَدِيقة. كَانت الحشائِشُ والأزهارُ الربيعيَّةُ تحيطُ بالأحجَارِ المرميَّة بإهمَال.. وَشَجرة الوردِ الوَحِيدة تتفتحُ مِنهَا وَردةٌ وحيدةٌ زَاهية اللون. قالتْ فِـى نفسـهَا: « هذِه وردةُ الأمـلِ.. لابدَّ أَنْ أقطفهَـا وأقدمهَا إلى أُمى وأدعوهَا لترَى بنفسهَا المَاسةَ الزرقَاء ».

وبينمَا هِىَ تضحكُ وتكلمُ نفسـها، لمحَـت فِى نافذةِ البيتِ المقابلِ لبيتهَـا إحدَى البنَات تنظرُ إليهَـا، وَإلى جانبهَا ذلكَ الولد الجرِئ، الذِى اسْمه « هِشَام » وهوَ ينَاديهَا:

- نُـور.. نُـور.. لا تقترِبى منَ الحجرِ.. ابتعـدِى عنهُ.. فالأفعَى تَخْتبئُ تحتهُ.

لَمْ تسـمعْ نُور مَا كانَ يصرخُ بهِ « هِشَـام »، عندمَا التقطَتِ الوردةَ ودخلتْ مُسرعةً إلى أُمهَا فِى غرفةِ الجُلوسِ وهِىَ تَلهثُ:

- تَعَالى وانظرِى يَا أُمى.. المَاسَة الزرقَاءُ يَا أُمى.. الماسَة فِى وسطِ الحَجَر.

وَاستغربتِ الأُم تمامًا مَا تقُوله نُور.. لكنهَا تَذَكرت أنهَا حَدثتهَا فِى

يوم عَنْ تلكَ الماسَـــةَ، وَلَمْ تَعتـبر الأُم ذلكَ إلاَّ وصفًا لمَا تتخيلهُ ابنتهَا.

لكنَّ نُور هذِه المرةِ كانتْ ترتجِفُ.. وتسحبهَا منْ يدهَا بقوةٍ.. وترجُوهَا بحرارَةٍ أَنْ تهبطَ إلَى الحَديقة.. أَوْ علَى الأقلِّ أَنْ تنظرَ مِنَ النافذَةِ.

وَبالفعلِ فقدْ أَخذت الأُم الوردَةَ بابتسَامةٍ غَامضةٍ، ثُم اقتربتْ مِنَ النافذةِ، ونظرتْ إلى حيثُ أَشَـارت نُور، وإذَا بماسَةٍ زرقَاء تلمعُ فِي تَوَهُّج، شَهقَتِ الأُم، وَقَالت:

- كَأَنهَا مَاسَة فعْلاً.. ولكنْ.. مَا هذَا الشعَاع؟.. هلْ هوَ شُعَاع الشَّمْسِ؟!

سَـحَبت نُور أمهَا منْ يدهَا، وهبطَتْ معهَـا إلَى الحَدِيقة.. وَكَادتِ الأُم تصـرخُ عندمَـا تأَكدتْ منْ وجُودِ المَاسَـة، وبينمَا هىَ تحاوِلُ أَنْ تلمسهَا، فتحَ هِشَام بابَ الحديقةِ الخَشَبيِّ المُهْتَرِى، وَاندفعَ نحوهمَا بقوةٍ وهُوَ يصِيحُ:



- أفعى.. أَفْعى.. أنَا رأيتهَا تختبئُ تحتَ هذَا الحَجر:

وَنظـرتْ نُور بتوجُّسٍ تحـتَ الحجَرِ، لكنهَا لَمْ ترَ شـيئًا، بينمَا أَجْفلَتِ الأم وَأمسَكت بيدِ ابنتهَا بقوةٍ، وَقَالت:

- لنعدْ بسـرعةٍ يَا نُور.. لنعدْ إِلَى البيتِ، وَعلينَا أَنْ نغلقَ الأبوابَ بإحكَام.

أمَـا نُور فقدْ نظرتَ إلَى هِشَام نظرةَ غَضَب، وقالتْ:

- مَا كانَ يجبُ عليكَ أَنْ ترعبنَا بهذهِ الطَّرِيقَة.

رَدَّ هِشَام:

- أَنَا رأيتهَا هنَا أكثرَ مِنْ مرَّة.. وَأَنَا أَخافُ عليكِ يَا نُور.

وَانْصَرفت نُور نحوَ المنزلِ، وَالدمُوع فِي عينيهَا، وهىَ تقولُ بصوتٍ مُنْخفض:

« مَا كانَ يجبُ أَنْ تفسدَ عليَّ تلكَ اللحظَة التِي انتظرتهَا طوِيلاً حتَّى ترى أُمِّي المَاسة الزرقَاء».

ارْتمَـتِ الأم فوقَ الأريكةِ، ووجههَا شَـاحِب، بينمَا انْفجرَت نُور بالبكَاء وَهىَ تقولُ:

- لا توجـدُ أفعى يَا أُمى.. لا توجدُ.. لَمْ أَرَ شـيئًا كهذَا.. فَمِنْ أَينَ تَأْتِى الأَفْعَى؟!

وَقَالت كلامًا كثيرًا، لكنَّ الأُم لمْ تسمعْهُ؛ لأنهَا كانتْ مُنشغلةَ البالِ بأمرِ تلكَ المَاسة.. فقدْ رأتهَا فعلاً.. ولمْ تكُن ابنتهَا حالمَةً أَوْ وَاهِمَة.. انحَنتْ نُور إلى الأرضِ لتلتقطَ الورْدَةَ.. وردةَ الأملِ التِى دَاسـتهَا دونَ أَنْ تَنْتبِه.

وَسَألت أُمَّهَا بصوتٍ خَافتٍ وَهِىَ تمسحُ دمُوعَهَا:

- أَنَا رأيتهَا يَا أُمى كَمْ هِىَ جَمِيلة؟

واكتفَتِ الأُم بأَنْ تهزَّ رأسَـها مُوَافقة.. ولمْ تَسْـتطِعْ أَنْ تُنفى وجودَ الماسَـة، أو تعـترفَ بِهَـا أيضًا.. فقدْ تكـونُ وَاهمـةً هِـىَ أيضًا مثلَ ابنتِهَا!!



لكنَّ الأُم صَمَّمت عَلى أَنْ تتابعَ النظرَ إلَى الحجَر بينَ حينٍ وَآخرَ.. وخاصَّة عندَ الشروقِ أَو الغُروب كمَا تقولُ نُور، إلاَّ أَنَّ هاجسًا منعهَا مـنْ أَنْ تفعلَ ذلكَ. فماذَا لَوْ كانتْ تحتَ الحجرِ أفْعَى مَلْعونةً كمَا قالَ هِشَام؟!



« أحلام مبعثرة »

اضْطَربت حياةُ نُور وأمهَا بعدَ ذلكَ الحَادِث، فقدْ منَعت الأُم ابنتَهَا مـنْ أَنْ تنامَ وحدهَـا فِي غُرفتهَا المُطِلة عَلى الحديقـةِ، خوفًا منْ أنْ تتسـربَ إليهَا الأَفعَى، إذَا نَسِـيت زجاجَ النَّافذةِ مفتوحًا عندَ المسَاء، أَوْ تَركتـهُ مفتوحًا أيضًا عندَ الصَّباحِ.. إِنَّهَا تطلُّ كلَّ يوم عَلَى الحديقةِ صَباح مَسَاء؟

ونُـور أيضًا اضْطربتْ أمورُهَا، ومواعيدُ دراسـتهَا، أَوْ رجوعهَا إلى البيـتِ، فهىَ تنتظِرُ هِشَام عنـدَ أَولِ الحَارةِ لتعـرفَ منهُ هلْ رأَى الأَفعَى فعلاً، أَوْ هوَ يُخفيهَا هِىَ وأَمهَا فقطْ؟!

لكنَّ هِشَـام، لَمْ يظهرْ لهَـا أبدًا وكَأنهُ يتحَاشَـاهَا. وَفكَّرتْ فِى أَنْ تذهبَ إليهِ فِى بيتهِ عندَ هُبوطِ المسَـاء وَتَسْـأله.. لكنهَا لاَ تستطيعُ؛ لأنهَا سَتُضيعُ الفرصةَ فِى النظرِ إلى الماسَة الزرقَاء.

ولَمْ تعدْ نُور تتناولُ طعامهَا بشكلٍ جَيِّدٍ، أَوْ تُذاكر دروسَهَا بسرْعَةٍ، وترفضُ أَنْ تشاركَ أيَّةَ واحدةٍ منْ رفيقاتـهَا فِى المذَاكرَة. وبمَا أنَّ الخَال تَأخـر فِى المجِئ إلى أُختـه وابنتهَا، فقدْ فَكَّـرت الأم فِى أَنْ تذهبَ إليـهِ فِـى تلكَ البلدةِ البعِيدَة.. وَلَمْ تُوافق نُـور على أَنْ تذهبَ معهَا؛ خوفًا منْ أنْ يتسلَّلَ هِشَام أَوْ غيره إلى الحَدِيقة، ويسرِقَ الماسَة.. وربمَا سـرقَ الحجَر كُلَّـه. لكنَّ الحجَر ثقيلٌ ومَغْـروسٌ فِى الأرضِ.. وربمَا كَانت سَرقةُ الماسَةِ أَسْهل.. وَحَدثت أُمَّهَا عَنْ مَخَاوفهَا فتراجَعت الأُمُّ

عنْ مشـروعهَا فِى السَّفر.. ولمَّا سَـألتهَا هَلْ حَدثت أحدًا عَنِ الماسَة ؟ أجَابتْ نُور:

- أبدًا لمْ أُحدِّثْ أحدًا سِوَى العَمَّ خَلِيل.

وكانَ العمُّ خَلِيل صاحبُ الدكانِ المجَاورِ لَهُمْ، قدْ رآهَا ذات مرةٍ فِى المسَاء، وهِىَ تُلامس الحجرَ فَسألها:

- لمـاذَا تفعلينَ هذَا يَا ابْنَتِى؟.. قَدْ تكونُ فيهِ حشَـراتٌ مُؤذية، أَوْ نَملٌ أَحمر يقرِصُ كَفيْكِ الصَّغِيريْن.

فَأَجابتهُ:

- لاَ.. ليسَ فيهِ شيءٌ سِوَى هذِه المَاسة الزَّرْقاء.

ضَحِكَ وقالَ:

- مَاسـةٌ فِى حَجَر ! !.. يَا سـبحانَ الله.. إنهُ حجرٌ قديمٌ لاَ يساوِى شيئًا.. ولكِنْ مَنْ يدْرِى، قَدْ يَحْتاجهُ أحدٌ للبنَاءِ فيدفعُ فيهِ ثمنًا.

وَسَألت أُمها:

- أَلاَ تذكرينَ يَا أُمى يومَ قالَ لكِ العمُّ خلِيلٌ وهوَ يُوَصِّلُ إليكِ أشيَاءَ للمطْبَـخِ: لمـاذَا لاَ تبيعينَ هذَا البيـتَ يَا أُمَّ نور وَتسـكنينَ فِى بيتٍ حَدِيث؟!

رَدَّت الأُم:

- نَعَمْ.. تذكَّرْتُ.

سَألت نُور:

- وبمَاذَا أجبتهِ حِينذَاك؟

قَالتِ الأُم:

- أَتذكَّرُ أننِى قلتُ لهُ: لاَ.. لنْ أَبيعَ هذَا البيتَ، حتَّى تتخرجَ نُور فِى المدرسَةِ الثَّانويَّة.

وَسَألتْ نُور نفسهَا: « وهلْ سَأظل معَ الماسةِ هكذَا وأنَا أحلُم طوالَ هذِه السنينَ؟ ».

وَفِى ليلةٍ هبتْ فيهَا عَاصفةٌ تحملُ رعدًا وبرقًا، لجأَت نُور إلى صدْرِ أُمها، وهىَ تشعُرُ بخوفٍ شديدٍ.. لاَمسَت الأُم شعرَهَا النَّاعم.. ومسَحت فوقَ وجنتيهَا المَبللَّتيْن بالدمُوع، وَسَألتهَا:

- لماذَا تبكينَ يَا حَبِيبتِى؟ أنتِ فِى حضنِ أُمك.. وَلاَ شىءَ يُخِيف.



قالتْ نُور:

- أخافُ أنْ يحطِّمَ الرعدُ الحجَر، وتضيعَ المَاسة.

وَضَحِكت الأُم وقالتْ:

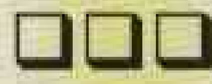
- أنتِ مُتَعلمةٌ يا نُور.. إنَّ الحجَرَ ثَابتٌ فِى مَكَانه، والرعدُ والبرقُ لا يستطيعَانِ تحريكَ الحَجَر.

وَتُحاولُ نُور أَنْ تنامَ، لكنهَا لاَ تستطِيعُ.. والأم أيضًا ظلَّت فِى أَرقٍ تتقلَّبُ فِى الفراشِ الذى ضمهَا معَ ابنتهَا.. وبينَ ساعةٍ وَأُخرى تلامسُ رأسـهَا وكتفيْهَا. هلْ كانتِ الأُم تحلمُ مِثْل ابنتهَا بِأَنْ تبيعَ المَاسـة الزرقَاءَ وتُغيرحياتهَا إلى الأَفْضل. ربمَا كانَ ذلكَ.. لكنَّ أَحلامهَا ليسَت كأحـلام ابنتهَا فهِىَ بينَ أَنْ تركـضَ وراءهَا.. أو تطردهَا عنهَا بينمَا أحلامُ نُور ثَابِتة وَأكِيدة.

وَفِـى تلكَ الليلةِ - أيضًا - رأتِ الأُم مـنْ وراءِ زجَاج النافذةِ بريقًا أَزرق مَائل إلى الخُضرة، يلمعُ عندَ الحافةِ. خَافت خوفًا شديدًا وَظَنتْ أنهَا الأفعى تنظرُ إليهَا وتحاولُ الدخُول. أَجْفلت ومَا لَبِثت أَنْ نهضَتْ منَ السريرِ بسرعةٍ؛ لتتأكَّدَ منْ أَنَّ النافذةَ مُغلقة بإحكَام وَكذلكَ البَاب. وعندمَـا اقتربَـت منَ النافذةِ رأتْ تلكَ القطَّـةَ البيضَاءَ، قطَّة الجيرَان تنظـرُ إليهَـا بعينيْهَا الزيتُونيتيْنِ، وَترتجِفُ مـنَ المطرِ. فتحتْ لهَا النافذَةَ لتدخلَ فَصرخت نُور:

- إِنهُم يسرقُونَ الماسَة يَا أُمى.. يسرقُون الحجَر.

هَـدَّأتِ الأُم خواطرهَا ، وتناولتْ منْشـفةً جفَّفت بهَا القطَّةَ البيضَاءَ التِى مَالبثتْ أن اسْـتَكَانت. وَلمَّا تعبَ الجميعُ منَ السهرِ، جاءَ النومُ عزيـزًا حتَّى انتهَـت العَاصِفة.. وبدأَ الفجرُ بخيوطـهِ البيضَاء يزينُ الأُفق. انسَحَبت الأُم بهدوءٍ منْ جانبِ ابنتهَا ، وقامَت لتتوضَّأَ وتُصَلى وَتدعُـوَ الله أَنْ يلهمهَا ماذَا يمكنُ أَنْ تفعلَ فِى هَذِه الحَالةِ التِى وّصّلت إليهَا معَ ابنتهَا ؟!



« أيام صعبة »

فِى اليومِ الأخيرِ للسنةِ الدِّراسيَّة، كانتْ نُور تشعرُ أنها فراشَةٌ تطيرُ فِى الهوَاءِ بعدَ أنْ استلمت شهادةَ نجاحها معَ ملاحظاتِ التشجيعِ والمديح لاجتهادهَا إضافةً إلى جَائزة كَبِيرة.

وَتسرعُ إلى البَيتِ؛ حتَّى ترَى أُمُّها نَتيجتهَا، وَفِى الطريقِ صَادفت هشَام فأدَارت بوجهِهَا عنهُ وَهُوَ يناديهَا:

- نُور.. نُور.. أُريدُ أَنْ أُكلمَكِ.

ولِمَاذَا تُكلمهُ؟ أليسَ هوَ الذِى قالَ لأمهَا إنَّ تحتَ الحجرِ الذِى يسطعُ بالمَاسة الزَّرْقاء تختفِى أَفْعِى قَاتِلة؟.. ومنذُ ذلكَ اليومِ لَمْ تعدْ أُمها ترَى المَاسَةَ فِى وسَطِ الحجَر.. وَلَمْ تعدَ تسمحُ لهَا بالنزولِ إلَى الحَدِيقة.. وَأصْبحَت تكتفِى بالنظرِ إلى الحجَرِ وَالمَاسة من خلالِ النَّافذةِ فقطْ.. وكثيرًا مَا كانتْ تفتحُ عينيْهَا فَلاَ تَرى المَاسة.. وكأنَّ الأفعَى هِيَ التِى ابتلعتْهَا.

رَكَضَت نُور نحوَ البيتِ، وَهشَام يُناديهَا بينمَا انْطفأَت فَرْحتها، وأَوْشكَتِ الدموعُ أَنْ تهجمَ إِلى عينيْهَا عندمَا تذكَّرت الماسةِ، ترى هَلْ تستطيعُ الآنَ وَقدْ نجحَتْ أَنْ تطلبَ مِنْ أُمهَا السمَاح لهَا بالنزولِ إلى الحَديقة؟ وماذَا سَتفعلُ فِى هذهِ العُطلةِ الصَّيفية إنْ لمْ يكنْ لهوهَا ولعبهَا فِى الحديقةِ معَ رفيقاتهَا أَوْ وحدهَا؟

عندمَا وصَلت إلى البيتِ فُوجئت بعدَّةِ أَشخاصٍ مِنْ بينهمْ فتاةٌ جميلةٌ تحمِلُ مِلَفًّا وأَوراقًا وَهُمْ يخرجُونَ مِنْ بيتهَا وأمهَا تودِّعُهم. قالتِ الفتاةُ:

– طبعًا.. أنتِ نُور. لقدْ حدثتنَا أُمكِ عنكِ.. ونحنُ نُريدُ أَنْ نتحدثَ معكِ أيضًا.

وَاسْتغربتْ نُور طلبَ الفتاةِ.. مَاذَا تُريدُ منهَا؟ وَمَنْ هِىَ أصْلاً؟.. ومَنْ هُمْ هؤُلاءِ الأشَخاص؟.. ومـاذَا كانُوا يفعلونَ فِى بيتهِـمْ؟ وَتَخيلـتْ أَنهُم ربمَا يُريدونَ شراءَ البيتِ.. فقدْ حَدثتهَا أُمهَا ذاتَ مرةٍ عنْ مشـروعٍ لهَا فِى أَنْ تبيعَ البيتَ والحديقَةَ.. وَرَفَضت



نورُ بشدَّةٍ.. وَكانَ ذلكَ قبلَ أَنْ تعثرَ عَلى المَاسةً.. فكيفَ وقدْ أَصْبحت المَاسةُ الزرقاءُ شيئًا حقيقيًّا وَرأت أُمهَا المَاسةَ بعينيْهَا أيضًا؟!

قَالتِ الفتاةُ:

- هَــلْ تُوَافقينَ عَلَى أَنْ نأخذَ هذه الحجَــارة مِنَ الحدِيقَةِ؟.. تقولُ أُمكِ إنَّ الحديقةَ لكِ.. وأنتِ تتسلينَ بالعِنَايةِ بهَا.

ردَّت نُور بحدَّةٍ:

- لاَ.. لَنْ أتنَازل عَنِ الحديقـةِ أبدًا.. وَلاَ عنِ الحجَارَةِ.. ثُمَّ إنكِ لَمْ تقولِى لِى مَنْ أَنْتِ؟

انْحَنتِ الفتاةُ برفق، وَقَالت:

- نحـنُ مِنْ مُديريَّةِ الآثارِ.. وَنحتاجُ إلى حجَارةٍ قديمَةٍ لترميمِ أَثرٍ عظيمٍ منَ الآثارِ.. مَا رَأْيكِ؟ سَندفعُ لكِ ثمنَ هذِه الحجَارة.

قَالتْ نُور:

- لاَ.. لنْ أبيعهَا بأىِّ ثمنٍ.. إنَّ ثمنَهَا...

وَرَددت فِى سِرِّهَا: « ثمنهَا أغْلَى مِنَ المَاس ».

وانصَرفَ الأشخاصُ والفتاةُ مُتَعجبة منْ جرأةِ هذِه البِنْت الصَّغِيرة وردِّهَا الحَادِّ.

وتــزدادُ الأيامُ صعوبــةً بانقطَاعِ نُور عَنِ النــزولِ إلى الحَديقة، ثُمَّ قــرارُ أُمهَا فِى ذهَابِهمَا لزيارةِ الخَال المريضِ فِى تلكَ البلدةِ البعيدَة. وظنَّتْ نُور أَنَّ أمهَا تحتاجُ إلَى النقودِ للمصْرُوفِ اليَومى، فتقدَّمتْ منهَا وبينَ أَصَابِعها تهتزُّ سِلسـلتهَا الذَّهبية، التِى طالمَا حَلُمت أَنْ تُزينهَا

الماسَـة الزرْقَاء، وطلبتْ منْ أُمهَا أَنْ تبيعهَا وَتستفيدَ مِنْ ثمنهَا،لكنَّ الأُمَّ ضَحِكت وَقَالت إنهَا لاَ تحتاجُ إلَى المَال.. بلْ هِيَ قَلِقَة عَلى أَخيهَا، ولابـدَّ منْ زِيَارته. وَامتلأَتْ عينَا نُور بالدمـوعِ، فكيفَ تُفَارق بيتهَا وَمَاستها.. حلْم حيَاتها؟

وَفِـى بيتِ الخَال لَمْ تنسَ نُور لحظةً غرفتهَا ونافذتهَا المُطلة عَلى الحَدِيقة.. وَالمَاسـة التِى تشعُّ أمامهَا مِثل النَّجْمةِ.. وعندمَا رَأت فِى منامهَا أَنَّ يدًا سَـوْداء امْتَدَّت إلى المَاسـة وَاقتلعتهَا.. أفاقتْ مَذْعورةً وهيَ تبكِى.. هَدَّأتْ أُمها منْ روعهَا، ومسَـحت العرقَ عَنْ جبينهَا..

وَوَعدتهَا بأنهمَا ستعودتان فِى اليوم التَّالى إلَى البيتِ.

وَاسْتأذنتْ نُور أُمهَا أَنْ تحدثَ خالَهَا عَنِ المَاسةِ.. لكنَّ الأُمَّ لَمْ تُوَافق.. وَردَّتْ وَهِىَ تضحكُ:

– ألاَ تنتظرِينَ حتَّى نقتلعهَا مِنْ مكانهَا؟

أَمَّا الأمرُ الذِى أثارَ نُور، فهِىَ أنهَا بعدَ أَنْ عَادت إلى البيتِ وَنَظرت إلَى الحديقةِ، وَجَدت الحجرَ مقْلُوبًا وقدْ تزحزحَ مِنْ مَكَانه، وظهرتْ تحتهُ حُفرةٌ صَغيرةٌ بترابٍ ناعمٍ وكأنهُ مُبلل.



أَسْرعت إلى أُمهَا وَقَالت:

- لقدْ سرقُوا مَاستِى يَا أُمى.. سرقُوهَا.

هَدَّأتهَا الأُم، وَقَالت:

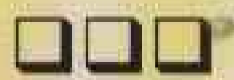
- أنتِ لمْ تنتبِهِى جيدًا لوضْعِيَّة الحجَر.. لقدْ قلبهُ أَحَدهم.. أَقصدُ أحدُ مسـؤُولِى الآثارِ؛ ليتأكَّدَ منْ صَلاَحيته لَهُم.. ليسَ فِى الأمرِ أَكثرَ مِنْ ذلكَ.

قالتْ نُور:

- وَمَنْ سَـيعيدهُ إلَى وَضْعِهِ السَّابِقِ لأتأكَّدَ أَنَّ الماسةَ لا تزالُ فيهِ؟ أَنَا لاَ أقدرُ يَا أُمى.. ولاَ أريدُ أنْ يسَاعِدَنِى هِشَام.

قالتِ الأُم:

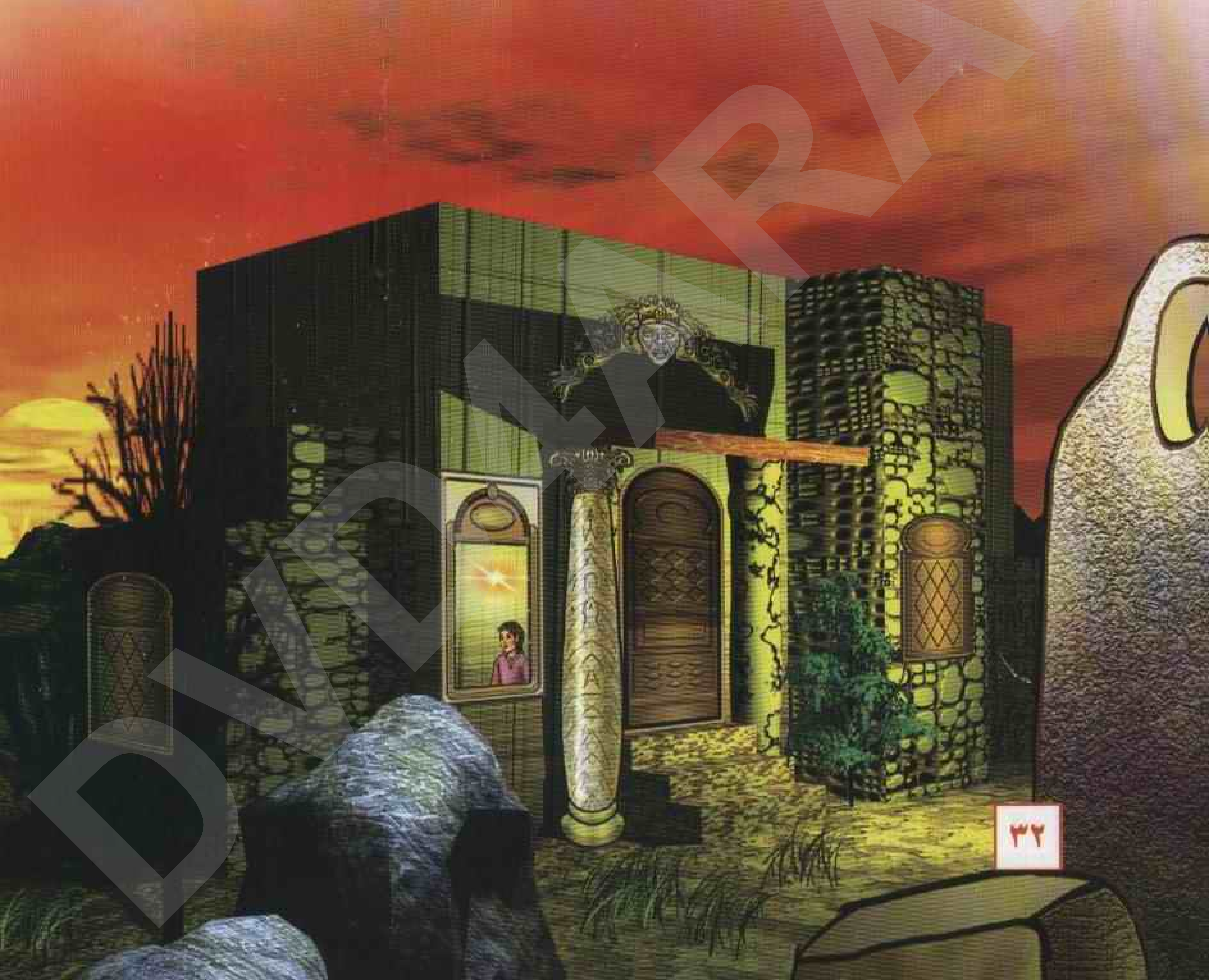
- سَنَرى مَاذَا سنفعلُ.. سَنَرَى.



« حزن وفرح »

لَمْ تعـدْ نُور تراقـبُ بزوغَ الشـمسِ وَلاَ غُروبهَا.. فَحجرُ المَاسَةِ مَقلوب.. والماسـةُ دُفنتْ فِى الترابِ حيثُ الأَفعى كمَا يقولُ هِشَـام.. وَأمهَا المسـكينَةُ تقتصِدُ جدًّا فِى مصروفهمَـا اليومِى.. إِذَنْ فالخَال لمْ يُعطِ أُمَّهَا المبلغَ الإضَافى الذِى كانَ يمنحهُ لهَا - دَائمًا - لتساعدَ نفسهَا عَلى شقاءِ الحياةِ وتربيةِ ابنتهَا.

لَمْ تعدْ نُّور تعرفُ النومَ الهَانِئ المفْروشَ بورُود الأَحْلام.. ولَمْ تعدْ تَرَى الماسـةَ الزرقـاءَ تلمعُ مثل نجمَة. ولمَّا جاءَ أشـخاصٌ آخرونَ منَ



الآثارِ يريدونَ شراءَ البيتِ كلِّهِ، وليسَ الحجارةُ فقطْ، وقعتْ نُور فِى مأزقٍ شَـدِيدٍ.. هَلْ تُوَافق أمهَا علَـى البيْع؟.. نَعَم.. يجبُ أَنْ تُوَافق.. ولكنْ ليسَ قبلَ أنْ يعيدُوا الحجرَ إلى مكانِهِ، ويتأكدَ الجميعُ منْ وُجودِ الماسَـة. ومَاذَا لَوِ اشْتروا البيتَ والحديقةَ والحجارةَ كلَّهَا وتركُوا لهَا هذَا الحَجَر؟

هـذَا مَـا صَارحت به أُمهَا فِى ذلكَ اليوم، الذِى رأتْ فيهِ الشـمسَ تبرقُ كمَا لم ترهَا مِنْ قبلُ، فقدِ اسْتيقظَتْ مُتأخرةً.. وَظنتْ أنـهَا شَمْس جَدِيدة، وليسَت تلكَ الشَّمس التِى كانتْ تشهدُ بزوغَهَا تَدْرِيجيًّا عندَ خُيوطِ الفجرِ الأُولى.

وَبجرأَةٍ شديدَةٍ، اسْتقبلتْ لجنةَ الشراءِ، وعرضَتْ عَليهم شروطَهَا. ضحكَ المسؤولُ عنِ الآثارِ وَسَألهَا:

– لماذَا هذَا الحجَرُ بالذَّات؟

وَارتبكتْ ولَمْ تعرفْ بمَاذَا تُجِيب، فقالَ لهَا:

– لكـنْ هـذَا الحجَر هوَ الأهـمُّ؛ لأنهُ النموذجُ الذِى سَـنقطعُ عَلى مقَاسـهِ، وَحسـب لَوْنه الأحجَار الأُخرَى التِى سَـنرممُ بهَا الهرمَ.. ألاَ تحبينَ الأهرَامَات وَتفخرِينَ بِهَا؟

شَـعَرت نُور أَنَّ قواهَا تَتَلاشـى.. وأنهَا يجـبُ أَنْ تفرطَ بالحجَرِ، فقالتْ بنبرَةٍ يَائسَة:

– طبعًـا.. طبعًا.. أنَا كمَا قلتَ تمامًا.. وَلكنْ ألاَ يمكنُ أَنْ تقلبُوا مِنْ

أجلِى الحجَرَ وتتركُونِى ألمسَـه أولاً، ثُمَّ أنْظُرُ إليهِ عند الغروبِ وعندَ الشروقِ فِى اليوم التَّالِى؟

استغربَ الرجلُ المسؤولُ هذَا الطَّلَب، وقالَ:

– سـنقلبُ مِنْ أجلكِ الحجَر.. وأثناءَ عَملية الشِّرَاء، تَسْتطيعينَ أَنْ تفعلِى بالحجَرِ مَا تَشَائينَ. ثُمَّ انْصرفُوا..

وَلاَحظتْ نُور تلكَ السعَادة، وذلكَ الفرحَ فِى عَيْنى أمهَا، وهِىَ تشرحُ لهَا كيفَ سَتشـتِرى بيتًا جديدًا حَدِيثًا.. وكيفَ سـتملؤهُ بالمفْروشَاتِ الأنيقـةِ.. وَبالأضواء الملَونةِ.. وكيفَ سَـتزيِّنُ حَدِيقتَـهُ بالوردِ والفلِّ والياسَمِين.. ثُمَّ ضمتهَا إلى صدرهَا وَقَالت:

– قبلَ كلِّ شـىءٍ سَأشـترِى لكِ مَاسَة زَرْقاء، تضعينهَا فِى سِلْسلتكِ الذَّهبية، اَمْ تُفَضلينَ الفيْروزَ أوِ العَقيقَ أوِ الزمرُّد؟

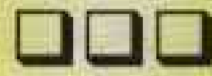
قالتْ نُور وقلبهَا يخفقُ بشـدةٍ، وهِىَ تتخيلُ شمسًـا جديدةً تُشرقُ عَلى بيتهَا الجَديد.. كمَا أَنَّ هذهِ السَـعادة هِىَ التِى تُشـرقُ عَلى وجْهِ أمهَا:

– لكِ مَا تَفْعليهِ يَا أُمِّى.

وَمَا اسْتطاعت نُور خلالَ الأيامِ التِى فَصلت بينَ وجودهَا فِى البيتِ، وبينَ عمليةِ البيْع، أَنْ تستيقظَ مُبكرةً جدًّا لتنظرَ منَ النافذةِ إلى الماسَةِ الزَّرقـاءِ فِى وسَـطِ الحجَر. وتجـرَّأَتْ فِى اليوم الأخـيرِ وهبطَتْ إلَى الحديقةِ، وتحسَّـست الحجَر، وَثبَّتَتْ أصابعَهَا فِى وَسَطه.. وجدَتْ

خطوطًا زرقَاءَ مِنْ طبِيعَة الحجَر، تتجمعُ فِي دائرةٍ صغيرةٍ وليسَ هناكَ مَاسة.

حزنتْ نُور لأنهَا لمْ تجدْ مَاستها، وَتَسَاءلت: « هلْ سرقهَا أَحَد ».. ولكنَّ الدائرَةَ ليسَت حُفرةً صَغِيرةً، وَلاَ يبدُو أنَّ أحدًا اقتلعَ منْ وسطِ الحجَر قطعةً مَا. تَسَاقطتْ دُموعهَا وتنهَّدت بعُمْقٍ، وقالتْ فِي نفسِهَا: « الحجَر حجَر.. ولا يمكنُ أنْ يكونَ مَاسًا.. ومعَ ذلكَ سَأَسْأَلُ أُمِّي ».





« نور كالماس.. فوق حجر أساس »

قبلَ أَنْ تخرجَ نُور وَأمهَا منَ البيتِ.. وقبلَ أَنْ يُسَلِّموا مِفتاحَهُ، همستْ نُور لأمهَا بكلام ابتسمَتْ لهُ الأمُّ. ولمَّا ابتعدتْ نُور لتودعَ الحديقةَ، همسَت الأمُّ بدَورِهَا بكلامٍ لرئيسِ البعثةِ الأثريةِ، فابتسَمَ أيضًا وهزَّ رَأْسَهُ.

وَظلَّ السرُّ فِي كَلاَمهمَا حتَّى كشفتهُ الأيامُ.. إذْ إنهُ بعدَ عام فقطْ - وليسَ بعدَ أعوام - تَمَّ الترميمُ للهرمِ بأحجَارٍ قديمَةٍ، وَمنهَا الأحجارُ التِي نقلوهَا مِنْ حديقةِ بيتِ نُور. وَأُقِيمَ حفلةُ الافتتَاحِ، وَاجتمعَ أُناسٌ كثيرونَ منَ الأهالِي وَالأجانبِ وَالسيَّاحِ يستمعُونَ إِلَى



المُوسيقَى والأناشيدِ الوَطنيّة الحمَاسيّة، وكَانَ كلما مرَّ فوجٌ مِنْ هَؤُلاء النَّاسِ أمامَ الجانبِ الذِى رُمّمَ مِنَ الهرم ، كانَ بعضُهم يُصفقونَ ، وَيُصفقونَ، وبعضُهم يشهَقُونَ، وغيرُهم يتساءَلُونَ فيمَا بينهُمْ: « لمَاذَا يبدُو هذَا الحجر بالذَّاتِ مُتألقًا ولامعًا ومَائلاً إلى الزرقةِ كأنهُ المَاس؟!! ومَا هذِه الحروفُ التِى نُقشت فِى زاويته؟ ».

مَنْ يعرفُ العربيةَ، قرأَ حروفًا ثلاثةً: « ن و ر » وأرقامًا تدلُّ عَلى تاريخ اسْتلام الحجرِ منْ صَاحِبته.. وَمَنْ لا يعرفُ العربيةَ « شرحَ لهُ أحدٌ ممَّنْ حولهُ أنَّ هذه إشَارة إلى العثور عَلى هذَا الحجرِ المناسبِ عندَ بنتٍ صغيرةٍ اسمهَا « نُور ».. وذلكَ فِى التاريخِ الذِى أُشِير فيهِ لاسْتلامه، وَنَقْلهِ إلَى هذا المكانِ وَإلى الهرم.

أَمَّا أنَّ نُور كانتْ موجودَةً فِى الاحتفالِ، فهذَا مَا جعلَ المسؤولُ الأولُ فِى الآثارِ.. يُلفت نَظَرَ جمهورَ الحَاضرينَ إليْهَا، ولمْ يلبثْ أَنْ دعاهَا إلى المنصةِ، لِترْوِى قصتَهَا معَ الحجَر، وَتكشَف عَنْ سرِّ المَاسَة الزرقَاء.. المَاسة التِى كانتْ فِى مَخيلتها.. ولعلّهَا رأتهَا منْ خلالِ شمسِ بلادهَا مُلتصقةً بهذَا الحجَر.. ولمْ تتخلَّ عنهُ، إلاَّ عندمَا تأكَّدت أَنهمْ سَيضَعونهُ فِى مكانهِ المناسِبِ فِى الهرَم.

وطلبَ منْ نُور أَنْ تتحدثَ إلى النَاسِ.. لكنَّ نُور التِى كانتْ مُضطربةً كثيرًا، لمْ تستطعْ أَنْ تتحدَّثَ إلاَّ بعبارَاتٍ قصيرةٍ، روَتْ فيهَا قصتَهَا معَ الحجَرِ وَالمَاسةِ الزّرْقاءِ، وكيفَ ظنَّتْ أنهَا يمكنُ أَنْ



تحصـلَ عليهَا أَوْ علَى ثمنهَا.. إلاَّ أَنَّ القيمـَة الحقيقةَ كانتْ للحجَرِ ذَاتِهِ وليسَ لدوائرٍ مَاسيّةٍ فوقَ سَطْحه.. بلْ لقاعدةٍ مَاسيّة تزينُ الهرمَ الضخمَ العَظِيم.

وَامْتلأَتْ عينَا نُور بالدمُوع عندمَا قَدَّمَ لهَا المسـؤولُ الأولُ فِى الآثارِ سلسـلةً فضيّةً فِي وسطهَا حجرٌ أَزْرَق.. ربمَا لمْ يكنْ مَاسة.. لكنَّ هذَا ليسَ مُهِمًّا.. فهوَ حجرٌ أصبحَ يمثلُ إليهَا رمزًا أَغْلى مِنَ الماسِ.

أخذتْ نُور الهدِيّةَ شاكرَةً.. وبينمَا هِيَ تعودُ إلى مكانهَا فِى الصَّفِّ الأَولِ منَ الاحتفَالِ تقدَّمَ منهَا ولدٌ أنيقٌ لمْ تتوقعْ رُؤيتهُ أبدًا.. كانَ هُوَ هِشَام، وقالَ لهَا مُهنئًا:

- لَـوْ كنتُ أعرفُ أَنَّ هـذَا الحجَر كانَ غَالِيًا عنـدكِ إلى هذَا الحَدِّ لمَا فعلتُ مَا فعلتُ..

وَلمْ تَسـألهُ نُور: « ماذَا فعلْتَ؟ »؛ ذَلكَ لأَنَّ الفرحةَ كانتْ تملأُ كلَّ كيانهَا، لكنَّ هِشَام قالَ:

- أَنَـا تَصـورْتُ أَنَّ مَـا رَأيتهُ كانَ أفعـىَ.. لكننِى اكتشـفتُ أنهَا كانتِ القطَّة بعينيهَا الزيتُونيتيْنِ وذيلهَا الرمَادِى الأَغْبَر. سَـامِحينِى يَا نُور.

وَبالطبع فقدْ سَامحتهُ نُور.. وصَافحتهُ.. وَقَالت له:

- خُذْ عُنوَانِى الجَديدِ يَا هِشَام وَتعَالَ لِزيارتنَا.

